الفصل الثانى

من هو الطبيب؟

كان الطبيب يدعى سـونو باللغة المصرية القديمة ويطلق هذا المسـمى على الأطباء الباطنيين. ويتدرج السونو فى الوظيفة من طبيب إلى مشرف على الأطباء، ثم كبير الأطباء، ولفظ سونو يعنى المعاناة من الألم، ويطلق على بعض السـونو لقب كاتب، حيث كان يسـتطيع قراءة النصوص الطبية المختلفة. والممارسة تمنحه الخبرة العملية الكافية واللازمة للعلاج.

أحد الأطباء فى مصر القديمة

أما طائفة الكهنة، فهم سخمت، وهم الجراحون، بينما ساو هم الأطباء الروحانيون، وسخمت تعنى من يمكنه إبعاد الأرواح الشريرة أى الأمراض، وساو تعنى الحارس أو الحامى.

ويماثـل التـدرج الوظيفى للأطبـاء فى هيكله مـا هو متبع للآن. فالهرم الوظيفى يبدأ بكبير الأطباء. السمنو، يليه الأطباء أو الإيمـى سمنو، ثـم المسـجل أو سمنو سمنو، ثم المستشـار شد سمنو وأخيرا المتخصص كل فى مجاله.

«لقد مرت سبعة أيام منذ أن رأيت حبى. وزحف المرض فى أوصالى. وثقلت أعضائى ولا أشعر بجسدى. وإذا عادنى الأطباء فلن يجدى دواؤهم نفعا. وليس لدى الكهنة علاج لى. فلا يمكن تشخيص مرضى. فإن حبى أجدى لى من الدواء. فأهميته لدى أعظم من كل كتب الطب» قصيدة حب عام ١٥٠٠ ق. م.

وتلخـص هـذه القصيدة ما عرف عـن الطب والأطبـاء آنذاك. فهنـاك الطبيب المعالج بالأدويـة. والكاهن المـداوى للنفس. وقد حمل بعضهم لقب «طبيب القصر، مشـرف على أطباء القصر، طبيب عيون القصر، أخصائى المعدة، ومن يفهم فى السوائل الداخلية للجسم وحامـى العانـة... إلخ» وأهم ما تبرزه هذه القصيدة هى كتب الطب التى هى مرجع كل طبيب ممارس يستقى منه علاجاته المختلفة.

وعرف كهنة سخمت بتخصصهم فى مجال الجراحة كما يذكر أحد هؤلاء الكهنة من الأسرة الحادية عشـرة: «لقد كنت قويا وماهرا فى المهنة أضع يدى على المريض فأتعرف على مرضه. لقد كنت ماهرا بيدى».

ويعين الأطبــاء ويتقاضون رواتبهم من قبل الدولة. وتتم معالجة كل مــن يحتــاج إلى العلاج مجانا، ويتقاضــى الطبيب مقابلا عينـ نظــير خدماته. وهو نظــام رعاية صحية متقــدم ومنظم يتطابق مـ ما هو متبع الآن فى هذا المجال.

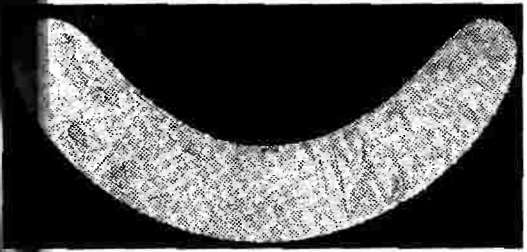

تعويــذة للحماية كان يلجــأ لهــا المصــرى القديــم

إلى أن تطــورت الأمور وأصبــح الأطباء يمارســون عملهم مقابـ أجر يدفعه المريض، مما جعــل طبقة الأطباء. بفئاتها الثلاث. مـ الأغنياء كما تدل عليه مقابرهم ومحتوياتها من أثاث جنزى وأدوا الحياة اليومية التى تصاحبهم بعد الموت.

ويؤدى التدرج الوظيفى الذى يبدأ بالطبيب أو الســونو للتصا إلى وظيفة كبير الأطباء مثل إوتى، الدولة الحديثة. القرن ١٦ ق. مـ الذى كان كبير أطباء مصر العليا ومصر السفلى.

يرجع هذا التمثال الذى يمثل سخمت، رمز التطبيب والعناية بالمرضــى، للدولــة الحديثة، الأســرة الثامنــة عشــرة. ســخمت تجسيد رمزى للقدرة على الشفاء من الأمراض، فقد كــان العلم والعقيدة متداخلين ويســيران معا فى كل تفاصيل حيــاة المصرى القديــم، وقد عرفــت ســخمت بتعطشــها للــدماء طبــقا للأسطورة.

«إوتى» كبير أطباء الدولة الحديثة

ومنـح الأطبـاء العديـد من الألقاب منها المشرف على أسرار الصحة فى دار تحوت أو متخصص العيون فى القصر .. إلخ

وعادة ما يلحق أفضل الأطباء بالبلاط الملكى حيث يجزل لهم العطاء مقابـل خدماتهم وتقدم لهـم الهدايـا المتعـددة مقابل شـفاء المريـض وكان كل طبيب متخصصا فى فرع واحد فقط من الطب. فهناك طبيب الأسنان، وكذلك الجراح، وطبيب العيـون. والأنف والأذن والحنجرة. والفم وآلام المعدة. وحتى الحقنة الشـرجية كانـت لها التخصص الممارس لها طبقا لما ورد فى بردية شستربيتى.

يتلقى الطبيب الهدايا مقابل خدماته الطبية

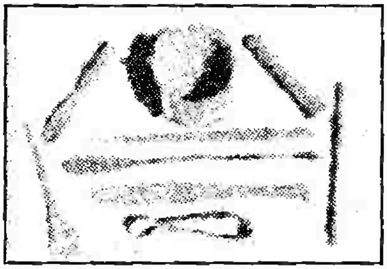

بعض الأدوات الجراحية القديمة
بالـمتحـف المصـرى بالقاهرة

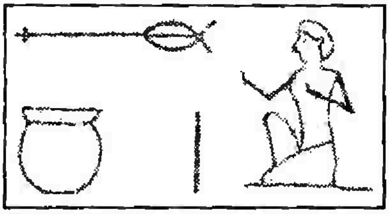

كلمة سونو باللغة المصرية القديمة

ويحظـى الطبيب المتخصـص باللقب المناسـب لما يؤديه من عمل كما هو مدون على جدران مقابر الأطباء. فـكل منهم له تخصصه ولقبه. ويماثل السـونو الممارس العام حاليا، فهو مكلف بعلاج الأسنان أحيانا، ويمارس الطب البيطرى عند الحاجة، ويهتم السـونو بالبشـرة والجلد، فيصف الدهانـات اللازمة ويمارس عمله طبقا لمبدأ التجربة والخطأ، ويكتسـب مهارته من خبرة من سـبقوه وممارسته العملية. ومن المتوقع من الممارس العام المسـاهمة فى القضاء على الزواحف والقوارض حسـبما تقتضيه الحالة.

ويعتـبر دور الطبيب على درجـة كبيرة من الأهمية خاصة فى مجتمع الحرفيين وبناة المنشـآت الذين يتعرضون للكثير من الحوادث. فالسـونو هو الممارس الشعبى للأعمال الطبية المتنوعة.

ويبـدأ الطبيب المصـرى القديم تعلمه بالقـراءة والكتابة. ثم يتوجه لأحـد المعاهد التعليمية لاكتساب مهارات طبية على أيدى أطباء سبقوه فى هذا المجال.

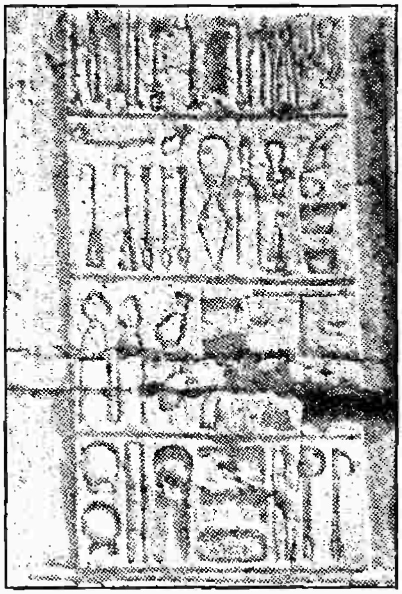

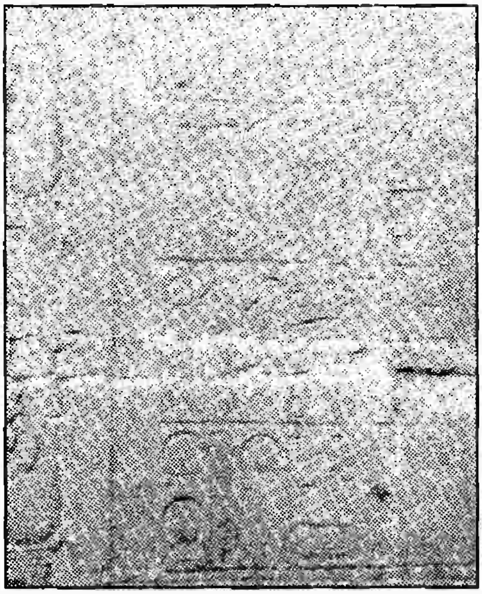

بعض الأدوات الجراحية كما ظهرت على جدران معبد كوم أمبو

وانتشـرت المعاهد التعليمية أو المدارس منذ الأسرة الأولى، ٣١٥٠ ق. م، الدولة العتيقة، ومن أهمها مدرســة أمحوتب فى العاصمة منف، ومدرســة تخريج طبيبات الولادة فى مدينة ســايس بالدلتا، ومدرســة الجراحة فى طيبة، ولكن أشــهرهم كان معهد مدينة أون الطبى، عين شمس، حيث يتلقى الطبيب مبادئ طبية وتدريب على الممارسة العامة، ثم التخصص.

وكانــت هذه المعاهــد تدعى بيت الحياة أو بــر عنخ، ويعد كتاب الطــب التطبيقى وكتاب التشـريح الذى قام بإعدادهما ابن الملك مينا، الأســرة الأولى، القرن ٣١ ق. م، من أقدم المراجع الطبية المحفوظة فى مكتبات هذه المدارس.

وكان على الطبيب تطبيق تعاليم الأولين بدقة لا يحيد عنها فقد سجل ديودور هذه الملاحظة عــن الطب فــى مصر القديمة: «كانوا يمارســون عملهم طبقا لقانون مــدون وضعه خلال الأزمنة الســابقة أطباء أكفاء»، كما ذكر أنه: «خلال حملاتهم العســكرية أو تواجدهم فى الريف كانوا يحصلون على العلاج مجانا».

ولكن يبدو أن هذا النظام المجانى يطبق فقط على العاملين فى المواقع الإنشـائية مثل منطقة دير المدينة والأهرامات على سبيل المثال، بينما يدفع الأغنياء مقابلا عينيا لخدمات الطبيب.

ويصاحــب الطبيــب عامة مســاعدوه الذيــن يتولون مهمة حمــل أدواته والمعــدات اللازمة لإعداد الدواء.

يبدأ الطبيب حياته العملية بتعلم القراءة والكتابة ثم التوجه إلى المدارس التعليمية الطبية حيث يتدرب على التطبيب والمداواة مع الرجوع لما هو مدون في كتب الأجداد من الأطباء الذين دونوا حصيلة تجاربهم ودراساتهم العملية على الجسم البشرى.

وتلحق المعاهد الطبية التعليمية عادة بالمعابد حيث يمارس الأطباء عملهم ولهم نفس منزلة الكهنة، كما تلحق بيوت الولادة أو الماميزى بالمعابد أيضا خلال العصر البطلمى، ولكنها تخدم غرضا آخر مغايرا لعملية الولادة الحقيقية، فلم يكن الماميزى أو بيت الولادة مخصصا للولادة العادية، بل كان يحمل معنى رمزيا يمثل الولادة الإلهية التى تصبغ على الفرعون المولود صفة الشرعية وتؤكد نسبه الإلهى، وبالتالى شرعية حكمه وأحقيته فى عرش مصر، وكان الملوك يلجئون إلى هذه الممارسة لكسب أحقيتهم على عرش مصر كما فعلت الملكة حتشبسوت.

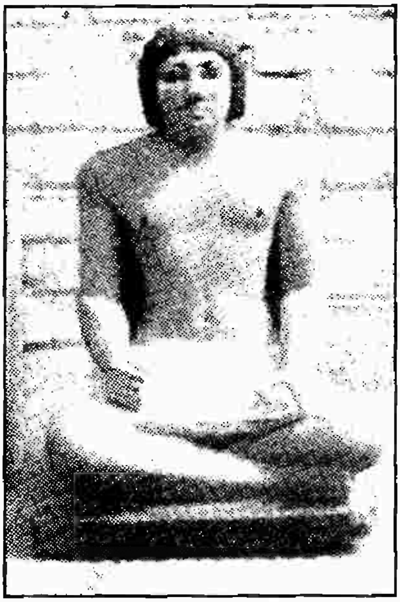

هذا التمثال من مقتنيات المتحف المصرى بالقاهرة

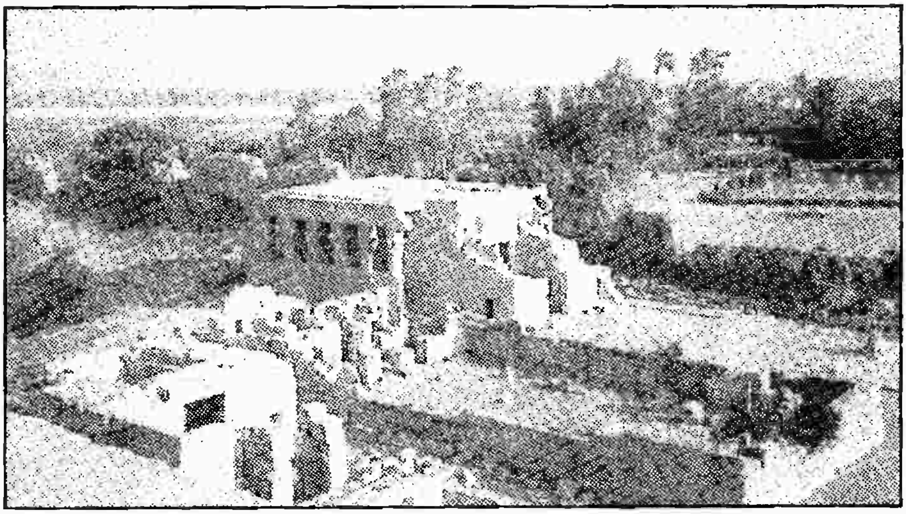

الماميزى الملحق بمعبد دندرة

وإلحاق تلك المدارس بالمعبد لا يعنى بالضرورة دراسة الروحانيات فقط، ولكن الطب يدرس مع العقيدة، فهما متصلان قديما وحديثا، إذ إن جامعة الأزهر حاليا تدرس الطب فى إحدى كلياتها العملية انطلاقا من نفس المبدأ.

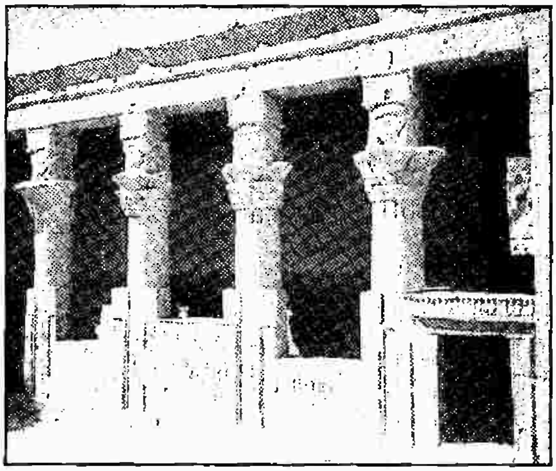

الماميزى معبد فيلة حيث سجلت على جدرانه الولادة الإلهية

ولم يقتصر دور الأطباء على الرجال فقط، فقد كان للنساء دورهن الهام فى العلاج والإشراف الطبى، وتعتبر بسيشت أول طبيبة ممارسة تولت مهمة الولادة وتعليم طبيبات متدربات فى مدرسة سايس الطبية وتخرجت الطبيبات لمزاولة المهنة على أسس علمية سليمة.

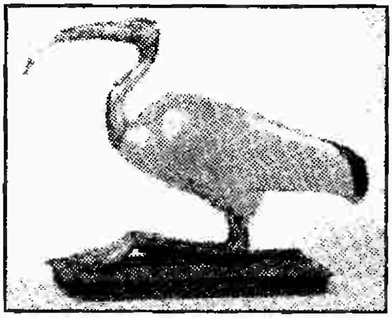

إمحوتب وتحوت وكلاهما رمزا للطب والمداواة

واعتبر إمحوتب، وزير وكبير مهندسى الملك زوسر، كبيرا للأطباء خلال الدولة القديمة، واعتبره اليونانيون إلها للطب وتوحد مع إسكليبيوس اليونانى.

ونسب بريستد محتوى بردية إدوين سميث لإمحوتب، ومن المرجح أن كلا من بردية برلين وجزء من بردية إيبرز وبردية سميث ما هى إلا نسخ أحدث لكتابات واستنتاجات إمحوتب الطبية. ومعنى كلمة إمحوتب هى «الآتى فى سلام» ويشارك تحوت إمحوتب فى الأهمية؛ فهو رمز المعرفة والطب والمداواة أيضا.

وكما تذكر الأساطير فإن تحوت هو الذى تولى مهمة مداواة عين حورس التى فقدها خلال صراعه مع ست وتقطعت إلى أجزاء عديدة، ٦٤ جزءا، قام تحوت بتجميعها وإعادتها لمكانها الأصلى.

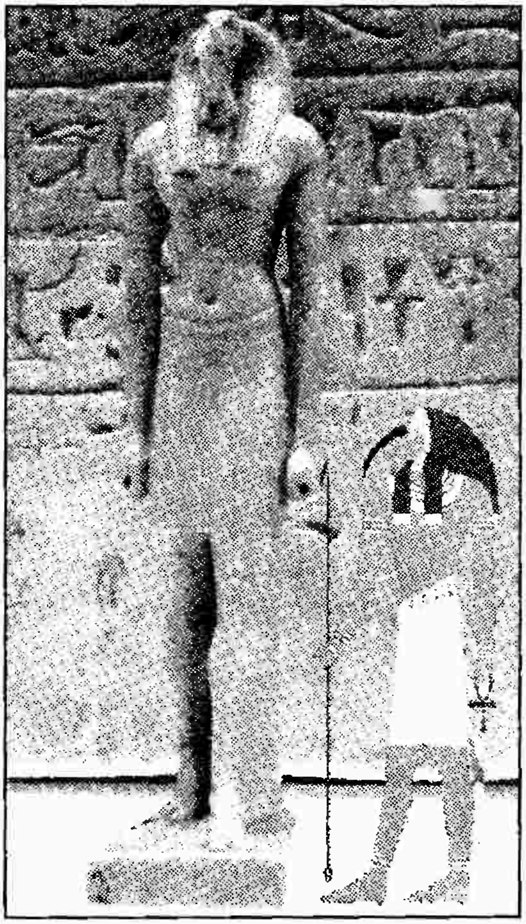

تحوت فى شكل الطائر أبو منجل أو بشكل آدمى يلبس قناعا يمثل رأس الطائر، ويمثل تحوت الرمز الذى علم البشر كيفية النظر إلى السماء وحساب الوقت والأيام إذ إن العام كان يمثل للمصرى حصيلة ٣٦٥ يوما ولم يغفل ربع اليوم. وطبقا لإحدى الأساطير، فإن تحوت هو من نشر الكتابة بين البشر فهو رسول البشر الذى يعلمهم ويدلهم على السلوك السليم. يعرض هذا التمثال بمتحف اللوفر.

ذكر المصرى القديم الأساطير كى يقرب للذاكرة الجماعية الكثير من المفاهيم التى تستعصى على العامة، وذكر تحوت من خلال الأسطورة يفتح الأذهان للطب والطبيب والعلاج والأمل فى الشفاء، فقوة الأسطورة آنذاك تعادل مفهوم الإعلام الحديث، ومن هنا أهمية تناول التفاصيل بعد تحديد إطارها العام كى يتمكن قارئها من لمس كل الأبعاد والملابسات، فنحن بصدد شعب يتحسس طريقه نحو العلم والمعرفة ويشحذ ذكاءه فى الاكتشاف والكشف للوصول إلى الحقيقة بهدف تحقيق سبل وظروف معيشية تخضع للإطار الأمثل.

ولم تذكر أساطير المصرى القديم تحوت فقط، ولكن إيزيس كان لها دورها فى المداواة من لدغات الثعبان وغيرها، فقد وضع المصرى رموزه كى ترشد العامة للمفاهيم المختلفة.

الملك الفارسى دارا الذى خلف قمبيز فى الحكم وعرف برجاحة العقل واحترامه للثقافات المختلفة واهتم بالتعليم والزراعة والبناء

واستمرت ممارسات الطبيب المصرى عدة قرون قبل أن يتوارث الإغريق دراسات المصرى القديم، ولا أدل على هذا من موقف الملك الفارسى دارا خلال القرن السادس ق. م الذى تمتع بحس عالٍ مكنه من معرفة قيمة ما يمتلكه البعض فى الدول التى احتلها، وهذا ما تؤكده النقوش المتواجدة على تمثال أحد الكهنة المعاصرين آنذاك ويدعى أوزاحور رسنت.

ويعرض تمثال هذا الكاهن فى الفاتيكان حاليا، وتعكس هذه النصوص بعضا من شؤون حياة هذا الكاهن المتصلة بالطب: «أوفدنى جلالة الملك دارا إلى مصر عندما كان جلالته فى (مدينة) إيلام ملكا عظيما على كل قطر وأميرا كبيرا على مصر لإنشاء قاعة بيت الحياة وهو مبنى...بعد تهدمه «لقد قادنى البرابرة من بلد إلى آخر حتى أوصلونى إلى مصر كأمر جلالته».

وكان بيت الحياة كما ذكر سالفا هو المكان الذى يتلقى فيه دارس الطب العلم والتدريب اللازمين وبه خزائن تحتوى على الكتب والمراجع الطبية، وكان يقصده البعض للعلاج أيضا. واستمرت هذه الممارسات حتى العصر اليونانى الرومانى. ثم العصر الإسلامى فيما بعد وتشهد المبانى الخاصة بالمماليك بالتحديد بعضا من هذه التطبيقات، فقد اهتموا بإنشاء مبانٍ خاصة للعلاجات المتنوعة مثل أمراض العيون، خنقاه قلاوون بشارع المعز لدين الله وخلافه.

ويستطرد أوزاحور رسنت: «نفذت ما أمرني به جلالته. اخترت الطلبة من بين أبناء علية القوم دون أبناء الفقراء. جعلتهم تحت إشراف رجال راشدين...من أجل طبيعة عملهم. لقد أمر جلالته أن يزود هؤلاء الطلبة بكل ما يلزمهم ليقوم كل منهم بعمله. فزودتهم بكل ما احتاجوا إليه وبكل الأدوات الواردة بالمخطوطات حتى عادت الحال بهذه المعاهد إلى ما كانت عليه قبل ذلك. «فعل جلالته هذا اعترافا بفضل هذه المهنة ورغبة في إنقاذ حياة المرضى وإعلاء لشأن المعبودات ومعابدهم واقتصادياتهم لتستمر إقامة شعائر أعيادهم على مر الزمن».

وحمل أزاحور رسنت، كاهن بمعبد نيت بصا الحجر أو سايس، لقب كبير الأطباء وزخرت المعاهد الطبية بالعديد من المراجع التي دون الطبيب المصرى فيها ملاحظاته وخلاصة تجاربه. وتحتوى هذه المراجع على تفاصيل دقيقة خاصة بالعمليات الجراحية التي مارسها الطبيب بكل كفاءة، كما دون الممارس للطب الباطني وللجراحة سجلات يومية تحتوى على ملاحظاته ومتابعته للحالات المرضية وما يستجد بتأثير العلاج وكيفية تلافى الآثار لبعض الحالات.

وقد استهلت بردية سميث بالتحديد بهذه الجملة: «يبدأ هذا الكتاب المتصل بتحضير الأدوية لعلاج كل أجزاء الجسم» بينما تبدأ بردية إيبرز بدعوات وابتهالات لحماية الأطباء من عدوى بعض الأمراض التي قد تصيبهم أثناء الاحتكاك بالمرضى. والعناية الواجب توفيرها فى حالة إصابة الطبيب.

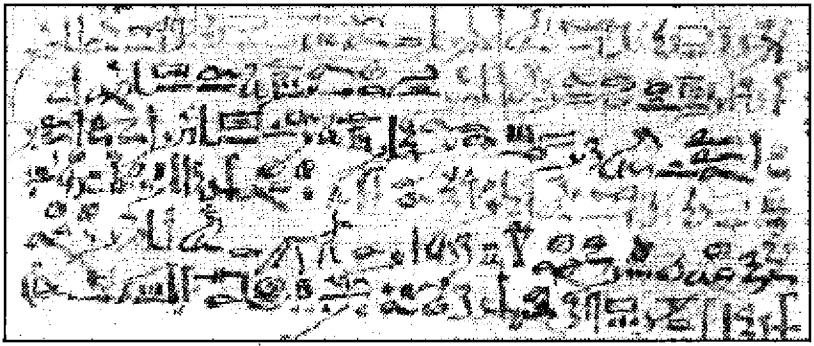

كتبت معظم البرديات بالخط الهيراطيقى

وقد اهتم الفرعون، ملك مصر. وإدارته بالجهاز الطبى فى مصر القديمة التى تمتلك نظاما خاصا للفكر والممارسة الحياتية، فلم يُجَزِّئْ المصرى النفس والروح والجسد فقط بل أقر وجودهم وأوجد لكل جانب سبل العلاج الخاصة به طبقا لرؤيا الطبيب التى توارثتها الأجيال.

وتعتبر الحماية الإلهية ضرورية لرفع معنويات المريض. والأسلوب العملى للعلاج يكمل هذا الجانب الإيمانى لدى كل من الطبيب والمريض معا.

وحظى الجهاز الطبى وعلى رأسهم كبير الأطباء الملكى بكل التقدير، وكان للأطباء مكانتهم فى المجتمع التى تعادل مكانة الكهنة وكبار رجال الدولة. ولم يقتصر دور الطبيب على حدود مصر فقط، بل تخطاها ليصبح الإقبال على المارس المصرى لدى بعض الدول له أهميته.

ولا عجب، فالطبيب كان يمارس الفحص، وجس النبض، والنقر على المصاب، ومتابعة حالة القلب والأعراض المرضية، ثم يشخص الحالة ويحدد العلاج وامكانيته من عدمه أحيانا.

وتحضير الدواء من المواد الطبيعية ذات الفاعلية السريعة عملا علميا خارقا فى هذا الزمان رفع من قيمة الطبيب لدى الأغلبية، ومازالت مكونات الكثير من العلاجات هى الأساس لبعض الأدوية الحديثة، ولكن بتحضيرات معملية صناعية ومواد غير طبيعية.

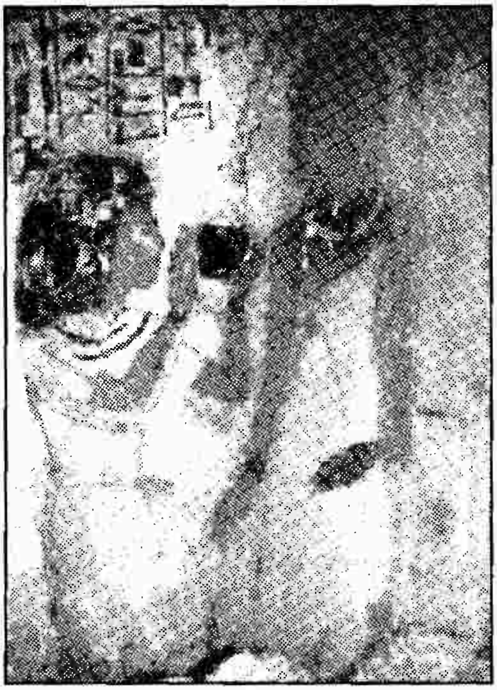
التطهر بالماء

لقد بدأ الطبيب المصرى عمله غير مسلح بأية معلومات يرتكز عليها وطور ما استنتجه من ملاحظاته وتجاربه إلى أن جمع حصيلة علمية لا يستهان بها هى الركيزة الأساسية للعديد من المعلومات الطبية وتطبيقاتها فيما بعد، إنه الإنسان وقدراته المسخرة لخدمة الإنسانية.

ولم يلجأ الطبيب للعلاج فقط، بل وضع أسسا وقائية هامة يتبعها الجميع لتفادى الأمراض منذ البداية وتتلخص ببساطة فى التطهر والاغتسال بالماء ونزع الشعر عن الجسد لتفادى التصاق الحشرات بالجلد واتباع نظام غذائى معين والصوم عند الضرورة والامتناع عن بعض الأطعمة أحيانا، وكلها إجراءات وقائية للمحافظة على الصحة العامة رفعت من قيمة الطبيب العلمية.

ولم يقتصر علاج الطبيب على البشر فقط، بل امتد للحيوان وظهر الطبيب البيطرى للعناية بالحيوان وعلاجه عند الضرورة، فقد كان للحيوان مكانته لدى إنسان هذا الزمان الذى احترم كل معطيات الطبيعة وقدّرها حق قدرها.

وقد اهتمت الإدارة الحكومية لمصر آنذاك بتنظيم عمل الطبيب الذى اعتبر من صفوة العاملين بالدولة على نفس الدرجة من الأهمية مثل المحارب والكاهن وكبار رجال الدولة. وانتشرت

قدرات الطبيب المصرى خارج مصر فكان يستقطب لعلاج علية القوم من الدول الأخرى، وكان الأطباء الملكيون هم كبار الأطباء الذين يتولون مهمة نشر العلوم الطبية لدى الطبيب المتدرب.

وتجزئة مهمة الطبيب وجعل كل واحد منهم متخصصا فى مجاله أعطت الفرصة للإبداع فى هذا المجال وتوجيه القدرات لعلاج الجزء الذى يتخصص فيه الطبيب. فظهر الطبيب الكفء للعيون وآخر لأمراض النساء وآخر للأذن والحنجرة، والجهاز الهضمى... إلخ

وهى التخصصات التى مازالت تسيطر على العلوم الطبية الحديثة على المستوى الإنسانى العالمى، ولكن طبيب القصر تخصص فى كتابة النصوص الطبية كنموذج يحتذى به الطبيب الممارس. السونو، باعتبار أن التطبيب من واجبات الملك الذى ينوب عنه كبير الأطباء للقصر الملكى.

مجموعة من المصريين الأصحاء يؤدون عملهم

ويذكر ديودور الصقلى فى هذا المجال: «يتبع الأطباء تعليمات كتابية صارمة منقولة عن عدد كبير من الأطباء القدامى المشهورين».

وتمتع الأطباء بوضع اجتماعى عال وكانت مخصصات الدولة لهم من الطعام والملبس توزع طبقا للتسلسل الوظيفى العادل لضمان علاج العامة والعاملين مجانا.

والوثائق الطبية المختلفة والمتعددة هى نتاج ما دون داخل المعاهد الطبية أو بيت الحياة. وتذكر بردية إيبرز: «يمارس السونو عمله لدى العامة ويستقى معلوماته من الكتب ومن ممارساته العملية».

أما الوابو، فهم طبقة الكهنة الملحقين إما بسخمت أو تحوت، فهم يعالجون الصفوة، وتتشكل رعايتهم المرضية بالعقيدة، فهم يستقون قدراتهم من الآلهة، طبقا للمفهوم السائد، وهنا يمتزج العلم والإيمان معا. أما الساو فهو يناضل ضد الأمراض المستعصية المجهولة المصدر والتى تهاجم الإنسان ولم يتبين الأقدمون علاجا شافيا لها. يتولى الساو أيضا علاج لدغات الثعبان والعقرب، ويلجأ للأوراد والتعاويذ للعلاج أحيانا. ويهتم الجميع باختلاف مواقعهم الوظيفية بالحالة الصحية العامة للفرد. فنشر الأطباء الأساليب الصحية السليمة التى تنحصر فى الاغتسال والتطهر وتنقية مياه الشرب، ونشر عملية الطهارة بين الرجال، وعدم الإفراط فى الطعام والصيام أحيانا والامتناع عن تناول بعض الأطعمة أحيانا أخرى، والعديد من الوسائل للحفاظ على الصحة وتفادى الأمراض.

واعتقـد الطبيـب المصرى القديـم أن الأوعية الدموية هـى التى توزع المـادة المحدثة للألم أو أوخـدو، فكانـت مهمة الطبيب وصف التركيبات العلاجية المختلفـة للقضاء على هذه المادة ومنع انتشارها عبر الأوعية.

ومن أهم ما ركز عليه الطبيب المصرى فى منع الأمراض قبل حدوثها طرق الوقاية من الأوخدو عن طريق النظافة المسـتمرة للجهاز الهضمى والأمعـاء والقضاء على هذه المواد الضارة ومنعها من التجلط داخل الدم والتسـبب فيما يعرف حديثا بالتسـمم الدموى واعتبر الطبيب أن كثرة الطعام من مسـببات الأمراض، وهذا ما أكده العلم الحديث، فقد اعتقد المصرى القديم أن عملية الهضم تحول فائض الطعام إلى بول وبراز، ويؤدى سـوء الهضم إلى توالد إفراز يحدث الأمراض المختلفة التى تنتقل عن طريق الأوعية.

ويعـد اهتمـام الطبيب المصرى خلال الأزمنة المختلفة اهتماما علميا سـليما، فقد تتبع من خلال أسلوب منهجى سليم خطوات المرض وتطوراته المتعددة وحاول إيجاد دواء شافيا لكل مرحلة. ونجح فى كثير من الأحيان فى الوصول إليه ودون الحالات المسـتعصية كمحاولة لدراسـتها والتعمق فيها وإيجاد العلاج المناسب لها بقدر الإمكان. ويمر فحص المريض بنفس الخطوات التى تتم الآن، إلا أن المصرى كان يركز فى سؤاله على النواحى الاجتماعية والنفسية للمريض، بخلاف سؤاله عن الأعراض المرضية، حتى يصبح علاجه متكاملا، وهذا لا يتوفر فى الطب الآن إلا نادرا بالرغم من أهميته.

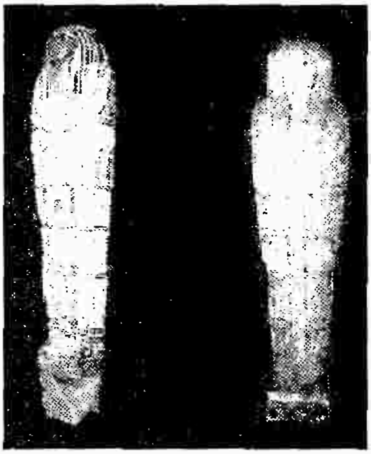

ويبـدأ الطبيـب بمعرفة الأعـراض التى يشـكو منها المريـض ويركز عليهـا، فقد أظهر المصـرى القديم اهتماما بالغا بالفرد، فلم يشـرح جسـده فقط، بل تخطى هذا إلى تحديد الجانب الروحى والمشـاعر المحسوسـة واللامرئية لدى الإنسـان والتى تمكن بجدارة من تحديدها، فتكلم عن الروح والنفس والظل والجسـد... إلخ. ثم يبدأ فى تحسس الأماكن المختلفة من الجسـم لعلمه ودرايته التامة بمواضع الأعضاء، فكان يتحسـس منطقة البطن، ويتحسس الكسور ويبحث عن الأورام «هناك شـرايين لكل جزء من الجسـم» «إنه هناك حيث يتحدث القلب».

ومعرفـة المصـرى بالأوعية الدموية هى ما ذكر فى بردية إيـبرز، إذ يذكر وعائين فى مؤخرة الـرأس واثنين فى الجبـين، وآخرين للعين، واثنين للجفن، واثنـين للأنف وغيرهما للأذنين، وتصب هذه الأوعية فى القلب الذى اعتبره المصرى القديم مركز تجمع الأوعية.

وقـد عرف المصرى نوعين من الأوعية يختلفـان فى الوظائف والصفات، فهناك أوعية يمكن قياس النبض عن طريق تحسسـها وترسـل هذه الأوعية السـوائل والهواء للأحشـاء الداخلية، أما النوع الثانى. فهى القنوات التى تنتشـر الأمراض بواسطتها داخل الجسم، وهذا الاختلاف الذى ذكره المصرى هو ما عرف بالشـرايين والأوردة فى عصرنا الحالى «فإذا مرض بعنقه وضعف بصر عينيه. فقل عنه إن ذلك بسـبب اسـتلام أوعية قفاه للمرض»، بردية إيبرز «هناك وعاءان فى ذراعه فإذا مرض ذراعه..».

ومـن هـذا المنطلق بدأت المداواة والتطبيب الذى يرتكز أساسـا على علاج ما يصيب الأوعية الدموية من أجسام خارجية تؤدى إلى الأمراض المتعددة.

وتتم المعرفة الطبية والخبرة بتناقلها من الطبيب الممارس إلى مسـاعده: «لقد سـأله الفرعون عن أشـياء عديدة، فأجاب عنها كلها... وكان كبير الأطباء يستشـير حارسيز بن رعموز، ومات كبير الأطباء بعد بضعة أيام، فتم تعيين حارسيز بن رعموز كبيرا للأطباء ومنح كل ممتلكات كبير الأطباء..»، من الأدب المصرى القديم.

واعتـبر المصرى القديم تحوت رمزا للطب، فهو أول من داوى عينى حورس طبقا للأسـطورة وهـو منشـىء العلم والقراءة والكتابـة وهذا ما حرص عليه الطبيب وهو تعلـم القراءة والكتابة ثم النواحى الطبية المختلفة.

وعـرف المصـرى أن للكبد أربعة أوعية وينشـأ المرض نتيجة لإفعامه بالـدم طبقا لما ورد فى البرديات وهو تعبير مشابه لمعنى الاحتقان الحديث كما أورد د.حسن كمال.

وقيل أن الصمم نتيجة مرض وعائى وأن مرض المعدة له نفس الأسباب، وكذلك ألم الفخذ ومؤخرة الرأس، وكلها محاولات للطبيب المصرى لفهم مسببات الأمراض المختلفة كى يتمكن من العلاج.

ولم يقتصـر المـرض على الأوعية فى التنقل ولكن كان الجـهاز التنفسـى أيضا أحد مصادره، والقنوات بخصائصها المتنوعة: القناة الدمعية، والغدد، والسائل المنوى، والعضلات.

لقد تمكن الطبيب المصرى من معرفة أسباب العديد من الأمراض وأوجد لها الدواء المناسب من خلال مصادر حيوانية أو نباتية أو بشرية أحيانا، وقد أثبت العلم فيما بعد فاعلية المواد المستعملة وإن بدت غريبة فى بعض الأحيان إلا أن المكونات الطبيعية لها خواصها الفعالة، ولكن من المؤكد أن الطبيـب المصـرى اتبع منهجا علميا وضعه نتيجة لفكره ومعرفته وخلاصة تجاربه وأورده فى مراجع وكتب وضعت تحت تصرف من امتهن الطب.

وقـد أثبت الطبيب المصرى أنـه باحث متمرس فى العلم انتقل بالطـب من البدائية ليصبح ممارسـة على كفاءة ودراية عالية بالعديد من النواحى المرضية والعلاجية ووضع بالتالى الأسـس السليمة لعلم الطب والتطبيب والدواء.

ويمكن تحديد الهرم الوظيفى للطبيب الذى بدأ منذ الدولة القديمة بالسـنو وهو الممارس العام الـذى يداوى الطبقات العاملة بينما السـنو بر يتولون مهمة علاج الملـك وقاطنى القصر الملكى، يليه فى المرتبة الور سـنو وهو المشـرف على الطبقة السـابقة، ثم الساه سنو وهو الطبيب المفتش الذى يتحقق من تطبيق التعليمات الطبية والذى يعلوه فى المرتبة كبير الأطباء وهو الايم رع سـنو الذى يعلوه أيضا ملاحظ كبار الأطباء حر تب سنو.

وقد حمل بعض الأطباء لقب «أطباء موفدون للدول الأجنبية» وهم رهن طلب من ملك أجنبى من مصر يطلبهم لمداواته أو تطبيب أحد أفراد أسـرته. وقد حظى الطبيب بمساعدة العديدين خلال ممارسـاته للتطبيب، فبخلاف مسـاعد الطبيب. هناك المرض، والمختص باللفائف أو المضمد، والمدلك، والحلاق، والمحنط، ومن يسـاعد الطبيب فى تحضير الأدوية... إلخ. ووجدت الكتب اللازمة لتدل وترشد كل فئة على كيفية أداء مهامها مثل كتاب التضميد وغيره.

والبرديـات المكتشـفة هى فى مجملها إرشـادات للطبيـب الممارس كى يتعـرف بدقة على الحالات الماثلة بين يديه، ويوجه الطبيب المعلم بارشاداته للدلائل المادية للتعرف على الأعراض، ثم تشخيص الحالة، ثم العلاج لهذه الحالة مع احتمالات التطور وما يؤدى له هذا التطور وكيفية مواجهته. فنجد على سبيل المثال فى حالة كسر تفتتى مضاعف بالجمجمة لا تصحبه أية إصابة ظاهرة، أن الجراح يناقش، وهذا سـبق علمى، أثر إصابة المخ على الأطراف السـفلى والعلاقة بالجانـب المصاب من الجمجمة، وطبقا لرأى د.حسـن كمال. فإن الجـراح المصرى بدأ بهذا، التعرف على وظائف مراكز المخ. فقد ذكر حول العينين والشـلل الخفيف بالرجل والقدم نتيجة للإصابة. أنه حدث فى نفس جانب الإصابة. وأنه حدثت إصابة عكسـية سـببت كسـرا فى الجهة المقابلة لمكان الصدمة. ونتيجة لهذا الوضع، أعطى الطبيب الموجه انذارا بخطورة الحالة ونصح بالراحة.

وفى تطور لنفس الحالة، ذكر الطبيب فى البردية، بردية سميث، أن الجراح بعد فتح الجرح المصـاب وظهور المخ. تيقن من اسـتحالة العلاج. فلم يصـف أى دواء، بل أكد أن علاجه هو: «جلوسه حتى يسترد لونه وحتى تعرف أنه وصل للنقطة الحاسمة».

وقـد أكد Dr. Lockhart، أن الشـلل الناتج عن إصابة الجمجمة بكسـر تفتتى مضاعف، غالبا ما يحدث فى جانب الإصابة، ولكن حدوثه. طبقا لهذه الحالة المبينة فى البردية فى نفس جانب الإصابة. يؤكد وجود رد فعل عكسى نتيجة للإصابة أحدث الشلل فى نفس الجانب.

اتجه الطبيب. بصفة عامة وشاملة إلى العلم ودراسة الحالات المختلفة من هذا المنظور، فدرس الحقائق، ومنطق الأعراض. ثم استخلص العلاج. إما الدوائى وإما الجراحى. فوضع بذلك حجر الاساس فى العلوم الطبية التى غطى معظم مجالاتها باقتدار مقارنة بالزمن الذى عايشه.

وفى حالة إذا ما اســتعصى العلاج على الطبيب، كان يقوى من عزيمة المريض بالرقى وكانا يلجآن معا إلى القوى العليا طلبا للشفاء، ولكن هذا لم يمنع الطبيب المصرى من وضع أسس كتابية للأمراض والعلاجات المختلفة لم يستدل إلا على القليل منها.

فطبقا لفلافيوس كليمنس، أحد مؤســـى مذهب من المذاهب المسيحية فى الإسكندرية، فإن الكهنــة المصريين القدماء قاموا بتجميع المعلومات الطبية المختلفة فى ٢٢ مجلدا واحتوت ســتة كتب على علوم التشــريح والجراحة والطب النســائى والأدوية وخلافه فيما عرف بكتب هرميس التى ذكرها جاليان ولم يعثر على أى أثر لها فيما بعد.

❑❑❑